النحو ومعاني النحو (نظرةٌ في الأسباب والوظائف والمشتركات)

Grammar and the meanings of grammar (a look at the causes, functions, and common features)

م. م. علي حامد حسين
المديرية العامة للتربية في محافظة بابل

أ. د. هاشم جعفر حسين
كلية التربية للعلوم الإنسانية / جامعة بابل

M. M. Ali Hamid Hussein
General Directorate of Education in Babylon

Prof. Dr. Hashem Jaafar Hussein
College of Education for Human Sciences - University of Babylon

Email: lh815808@gmail.com

ملخَّص البحث:

تضمّن هذا البحث الحديث عن موضوعين يكمّل أحدهما الآخر, فالموضوع الأول هو: (النحو) بتعريفه لغةً واصطلاحًا, وبذكر أسباب وضعه, وببيان وظيفته التي تتصف بالدقة في تطبيق القاعدة النحوية.

والموضوع الثاني هو: (معاني النحو) وهو موضوعٌ ملازمٌ للنحو, وتظهر فيه مقاصدُ الكلام, ويُدفَع به تصوّرُ الجمودِ في قواعد النحو, وهو يمثِّل دلالةً ناتجةً من استعمال الألفاظ في الجملة.

الكلمات المفتاحية:

النحو ـ معاني النحو ـ الأسباب والوظائف والمشتركات

Search summary :

This research included talking about two topics that complement each other. The first topic is: (grammar), by defining it linguistically and terminologically, by mentioning the reasons for its development, and by explaining its function, which is represented by the approach in which the necessary conditions are set to achieve the grammatical phenomenon .

The second topic is: (Meanings of Grammar), which is a topic inherent to grammar, in which the purposes of speech appear, and is motivated by the perception of stagnation in the rules of grammar. It represents an indication resulting from the use of words in the sentence at the level of analysis or composition .

key words :

Grammar - meanings of grammar - functions and common features

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين, والصلاة والسلام على نبينا محمدٍ وآله الطيبين الطاهرين.

كانت شرافة علم النحو وماتزال مستمدةً من أسباب نشأة هذا العلم الذي ثُبِّتَتْ قواعده وأحكامه بعد مجيء الإسلام ونزول القرآن الكريم, فكان إقبال المسلمين على فهم القرآن الكريم وعلى تفسير آياته من بين أهم أسباب نشأة هذا العلم, فضلًا عن سبب ظهور اللحن الحاصل في العربية من الاختلاط بين العرب وغيرهم؛ فأدّى ذلك إلى ضرورة وضع القواعد والأحكام التي تضبط الكلام العربي الأصيل ليرتوي من هذا النبع الصافي كلّ ناطقٍ باللغة العربية, وكلّ محبٍّ لها, وكلّ باحثٍ فيها.

وبرزت مع هذا العلم ضرورةٌ تلازميةٌ تتمثّل بإدراك المعنى الذي غفل عنه قومٌ, وأدركه آخرون فبيّنوه في مصنفاتهم بالإشارة أو بالتصريح أو بوضع مؤلفاتٍ كاملةٍ تتبيَّن فيها العلل والمعاني النحوية.

المبحث الأول: النحو

النحو لغةً:

إنَّ أبرز المعاني اللغوية للفظة (النحو) التي لها صلة بموضوع البحث هي ما يأتي:

1- (القصد): وهو أبرز معاني النحو, "ولذلك سُمِّي نحو الكلام؛ لأنّه يقصد أصول الكلام فيتكلّم على حسب ما كان العرب تتكلّم به"[1], ومنه قول "أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام" (ت: 41 هـ) لأبي الأسود الدؤلي (ت: 69هـ): "(انحُ هذا النحوَ يا أبا الأسود)"[2].

2- (الطريق والجهة) : ومنه قول الشاعر:

يحدو بها كل فتًى هياتِ وهنَّ نحوَ البيتِ عامداتِ[3]

3- (المِثْل): وذُكِر في "القاموس المحيط"[4] من دون شاهد, ومنه استعمال اللغويين قديمًا وحديثًا لعبارة الاستشهاد المعروفة وهي: (نحو قوله) أي: مثل قوله.

النحو اصطلاحًا:

عرَّفه ابن السّراج (ت: 316هـ) قائلًا: "هو علمٌ استخرجه المتقدّمون فيه من استقراء كلام العرب حتّى وقفوا منه على الغرض الذي قصده المبتدئون بهذه اللغة"[5]. وتبرز في هذا التعريف قضية (الاستقراء) وهي أولى خطوات البحث النحوي, ولكنَّ هذا الاستقراء كان ناقصًا ولم يكن تامًّا لسببين هما:

الأول: إنهم لم يستطيعوا استقراء جميع كلام العرب لصعوبة تحقيق ذلك.

والثاني: إنّهم لم يَسْتَقْروا المُدَوَّنة اللغوية لأهل البيت عليهم السلام بل استبعدوها لأسبابٍ سياسيةٍ, أو إنَّ هذه المدوَّنة جرى عليها ما جرى من خلافٍ في الاستشهاد بالحديث النبويّ الشريف, وإن كان هذان السببان منعا من الانتفاع من هذا الاستقراء؛ فنحن اليوم بما عندنا من فسحةٍ وحريةٍ في الحديث نستطيع البحث في هذا الإرث اللغوي الضخم.

أمّا ابن جني (ت: 392هـ) فقد عرَّف النحو قائلًا: "النحو هو انتحاء سَمْتِ كلام العرب في تصرّفه من إعرابٍ وغيره"[6], وتبرز في هذا التعريف قضيةٌ حدَّدها ابن جني بقوله: (انتحاء كلام العرب), فهو لم يذكر في تعريفه (انتحاء القرآن الكريم).

ويمكن القول إنَّ ابن جني لم يذكر في تعريفه للنحو (انتحاء القرآن الكريم)؛ لأنَّه أطلق عبارة (كلام العرب) وأراد بها الشمول, أي إنّها تشمل القرآن الكريم؛ لأنَّه نزل بلغة العرب, أو لأنَّ أسلوب القرآن أعلى من أسلوب التعلُّم لأحكام النحو من مثل: (ذهبَ زيدٌ, وجاءَ عمرٌو), وبعد ملاحظتنا لغياب هذه الجزئية في تعريف ابن جني يظهر لنا تساؤلٌ مفادُه: أين نجد انتحاء القرآن الكريم؟

وللجواب عن هذا التساؤل يمكننا القول: إنَّنا ندرسه في كتب التفسير, وفي كتب إعراب القرآن, وفي كتب معاني القرآن, وفي كتب أحكام القرآن؛ والسبب في ذلك أنَّ هذه الكتب معنيّةٌ بأسلوب القرآن الكريم, فنلاحظ أنَّ سيبويه (ت: 180هـ) مثلًا لم يحاول إيجاد التعليل النحوي في قوله تعالى: چ ئه ئو ئو ئۇ چ (سورة طه, من الآية: 63), أي في علّة رفع اسم الإشارة؛ ولذلك فإنَّه عندما وضع قواعد النحو وضعها لغرض التعليم على ما هو أسهل؛ لأنَّ تعليم المبتدئ ينبغي أنْ يبدأ من مستوى أقل من مستوى القرآن الكريم, وهذا المستوى يتمثَّل بكلام العرب.

ومن الأدلّة على ما ذهبنا إليه ما نراه في اختلاف أسلوب الزمخشري (ت: 538هـ) في كتابيه: (المُفَصَّل) و(الكشّاف), ففي كتاب (المفصّل) كان أسلوبه نحويًّا, وأمّا في كتاب (الكشّاف) فقد كان أسلوبه مختلفًا عن ضوابط الكتاب الأول؛ لأنَّ القرآن حمّال أوجه.

ومن ذلك أيضًا اختلاف أسلوب عبد القاهر الجرجاني (ت: 471هـ) في كتبه, فأسلوبه في كتاب (دلائل الإعجاز) يختلف عن أسلوبه في كتاب (المقتصد في شرح الإيضاح).

أمّا ابن هشام (ت: 761هـ) فإنَّه عرّف النحو قائلًا: "هو علمٌ بأصولٍ يُعرَفُ بها أحوال أبنية الكلم إعرابًا وبناءً"[7], وفي ذكر لفظة (أصول) هنا إشارة إلى وجود أصولٍ وفروعٍ في هذا العلم, ونجد في هذا التعريف الإشارة إلى (الوظيفة الإعرابية).

عناية القدماء بالمعنى في النحو العربي

وجَّه بعض المحدثين اتهامًا للقدماء بأنّهم لم يهتموا بجانب المعنى في النحو العربي, ودليلهم في ذلك متابعتهم القاصرة لتعريفات القدماء. وللإجابة عن ذلك نقول:

إنَّ القدماء اهتموا بالجانب الوظيفي وجانب المعنى من النحو, أمّا ما ظهر من تعريفاتهم لمصطلح النحو فهو من باب الجانب التعليمي الذي ينبغي أن يُقدَّم للدارسين والمتعلمين للنحو, ودليلنا في ذلك أنَّنا نلاحظ مثلًا أنَّ ابن هشام حين تحدَّث عن جهات الاعتراض على المُعْرِب ذكر أول جهةٍ منها قائلًا : "أنْ يراعي ما يقتضيه ظاهر الصناعة ولا يراعي المعنى, وكثيرًا ما تزلُّ الأقدام بسبب ذلك, وأوّلُ واجبٍ على المُعرِبِ أن يفهم ما يعربه مفردًا أو مركَّبًا"[8]. وهذا يبيّن لنا اهتمام القدماء بالمعنى, بل بجعله الواجب الأول على كل نحويّز

تعريف المحدثين للنحو

القسم الأول: اهتموا بالجانب الشكلي أكثر من الجانب المعنوي, ومنهم محمد محيي الدين عبد الحميد (ت: 1392هـ) الذي عرَّفه قائلًا: "العلم بالقواعد التي يُعرَف بها أحكام أواخر الكلمات العربية في حال تركيبها من الإعراب والبناء وما يتبع ذلك"[9].

القسم الثاني : اهتموا بالجانب المعنوي ومنهم الدكتور إبراهيم مصطفى (ت: 1962م) الذي عرَّف النحو قائلًا: "هو قانون تأليف الكلام وبيانٌ لكلِّ ما يجب أن تكون عليه الكلمة في الجملة, والجمل مع الجمل حتّى تتَّسق العبارة ويمكن أن تؤدّي معناها"[10].

أسباب وضع علم النحو:

كان العرب يتكلّمون على سجيتهم وهم يمتلكون من الفصاحة الشيء الكبير, وعندما جاء الإسلام وسمعوا آيات القرآن الكريم تعجّبوا من هذا الكلام الذي لا يدانيه كلام بشر, فاعتنى المسلمون الأوائل عنايةً كبيرةً في قراءة القرآن الكريم وحفظه وتدارسه وتدبّر آياته, وأقبل غير العرب الذين اعتنقوا الدين الإسلامي على محاولة فهم تعاليم الدين الجديد ولاسيما القرآن الكريم الذي هو كلام الله عز وجل.

ثمَّ تولّدت الحاجة إلى وضع علمٍ في العربية يبين سننها وقوانينها تتمثّل أهميته وأسباب الحاجة إليه فيما يأتي:

1- فهم القرآن الكريم وخدمته بدليل أنَّ أغلب النحويين الأوائل كانوا من قرّاء القرآن الكريم, وذلك الفهم للقرآن يحتاج إلى مقدّمةٍ تتمثّل بمعرفة قواعد النحو وأحكامه.

2- الابتعاد عن اللّحن في اللّغة الذي بدأ يظهر في المجتمع آنذاك نتيجة اختلاط العرب مع الأعاجم.

3- الاهتمام بتدريس غير العرب الراغبين بدراسة اللغة العربية التي يحتاجونها لمعرفة مقاصد القرآن الكريم أو ما يتعلّق بأحكام الإسلام.

والمشهور أنَّ أول من بادر إلى وضع قواعد لعلم النحو هو "أمير المؤمنين عليُّ بن أبي طالب عليه السلام", وقد قال أبو البركات الأنباري (ت: 577هـ) في ذلك: "اعلمْ أيَّدك الله تعالى بالتوفيق, وأرشدك إلى سواء الطريق, أنَّ أوّل من وضع علم العربية, وأسّسَ قواعده, وحدَّدَ حدوده أمير المؤمنين عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه, وأخذ عنه أبو الأسود الدؤلي"[11]. وهذه المبادرة من "أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام" تكشف لنا أهمية هذا العلم التي لم يغفل عنها, فأسَّس قواعدَه الأولى؛ لينطلقَ بعدها العلماء والدراسون في مضمار البحث والتأليف.

وفي حديث الدكتور محمد حماسة (ت: 2015م) عن أسباب نشأة النحو والتمييز بين هذه الأسباب والغايات قال: "ولستُ أنكر أن يكون ما تدلُّ عليه هذه الروايات وأمثالها من بين الأسباب التي دعت إلى نشأة النحو العربي, بل قد تكون المحافظة على النص القرآني من أن يتطرَّق إلى لغته العليا لحنٌ أو فسادٌ من أهم الأسباب الداعية إلى ذلك, ولكن هناك غايةٌ أخرى لا تقلُّ عن هذه أهميةً وإثارةً ودفعًا للبحث, هذه الغاية هي الرغبة القوية في معرفة أسرار التركيب القرآني, وهي بعد ذلك الرغبة الإنسانية في تعرُّف أهم المظاهر الإنسانية بإطلاق اللغة, وتمييز التراكيب بعضها من البعض الآخر, ومعرفة خصائصها واكتناه أسرارها"[12].

فرأى الدكتور محمد حماسة أنَّه فضلًا عن السبب الأساس في وضع علم النحو, وهو الابتعاد عن اللَّحن في القرآن الكريم, فإنَّ معرفة أسرار التركيب القرآني وخصائصه تمثِّل دافعًا قويًّا لوضع هذا العلم والانتفاع منه في هذا المجال.

وممّا لا شكَّ فيه أنَّ القرآن الكريم كان صاحب الفضل الأول في الحفاظ على لغتنا من الضياع, فمن محاولة فهمه ودراسته انطلقت بداية وضع علم النحو, وبالتمسك بتلاوته وتفسير آياته تمسَّك الناس بلغتهم العربية.

وقد احتاجت علوم مختلفة إلى معرفة علم النحو وقواعده وأسراره, ومن هذه العلوم: علم التفسير, وعلم الحديث الشريف, وعلم الفقه, وغير ذلك من العلوم التي تحتاج إلى علم النحو.

وظيفة النحو :

قد يتمسك بعض الباحثين بوظيفةٍ ظاهريّةٍ لعلم النحو وهي ضبط أواخر الكلم فيجعل منها غاية هذا العلم ويغفل عن الأهداف الأخرى التي تتحقق من دراسة هذا العلم , وللدكتور محمد حماسة حديثٌ في هذا الجانب قال فيه: "ليست غاية النحو هي معرفة الصواب والخطأ في ضبط أواخر الكلم فحسب, وإن كان المتتبِّع لتحديد غاية النحو يلحظ أنَّ النحاة المتأخِّرين هم الذين يجعلون غاية النحو هي تمييز صحيح الكلام من فاسده"[13]. ثمَّ كشف الدكتور محمد حماسة عن غايةٍ أخرى, فقال: "ومعنى هذ أيضًا أنَّ المعيار الذي يُحتكم إليه في تمييز الصواب من الخطأ نسبيٌّ تقريبيٌّ. وإذن تبقى غايةٌ أخرى هي الكشف عن التمايز بين هذه التراكيب والفروق بينها في أدائها لما يُراد بها أداؤه والتعبير عنه"[14]. وهذا يعني أنَّ وظيفة النحو لا تقف عند تمييز الصواب من الخطأ في ضبط الحركات الإعرابية, وإن كان هذا جزءًا من وظيفته الظاهرية. ويمكننا تحديد وظيفتين بارزتين للنحو هما:

1- وظيفة اللّفظ: أي الإعراب, ومنه يسمى النحو إعرابًا, وعليه تُذكر التعريفات في الكتب النحوية لغرض التعليم.

2- وظيفة المعنى: ونجد النحويين ابتداءً من سيبويه قد ربطوا النحو بالمعنى إذ لا يمكن فصل معرفة الإعراب عن معرفة المعنى المراد من الجملة, وهذا ما صرَّح به ابن هشام في المغني, ومن الأمثلة على ذلك قول : "(ضرب موسى عيسى)" فلا يُعرَف الإعراب إلّا بفهم المعنى والسياق والقرائن.

ومن ذلك "قوله تعالى: ﭽ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﭼ (سورة هود, من الآية: 87), فإنّه قد يتبادر إلى الذهن عطف (أنْ نفعلَ) على (أنْ نتركَ), وذلك باطل؛ لأنّه لم يأمرهم أن يفعلوا في أموالهم ما يشاؤون, وإنّما هو عطفٌ على (ما) فهو معمولٌ للترك, والمعنى: أنْ نتركَ ما نفعل"[15].

المبحث الثاني: معاني النحو

م. م. علي حامد حسين أ. د. هاشم جعفر حسين

أنواع المعاني:

قبل الدخول في موضوع معاني النحو نذكر أنواع المعاني في اللغة العربية, والتي وضّحها السيد مصطفى جمال الدين (ت: 1996م), وهي:

1- المعنى الحقيقي: ما وُضِعَ اللفظ بإزائه أصالةً, وهو ما يتكفَّل به علم المعجم.

2- المعنى الاستعمالي: الذي تجاوزَت اللغة فيه ذلك المعنى الأصلي فاستعملت اللفظ في غيره على سبيل المجاز والكناية, وهذا يتكفَّل به علم البيان.

3- المعنى الوظيفي: ما تؤديه الكلمة – بما لها من معنًى حقيقي أو استعمالي – في أثناء تركيبها مع غيرها من وظيفةٍ من أجلها استُخدِمَت في هذا التركيب ... , والعلم الذي يتكفَّل بهذه المعاني التي سُمِّيت بالمعاني النحوية هو علم النحو[16].

المعاني بين النحويين والبلاغيين:

حصلت إشكاليةٌ في تحديد طريقة تعرُّف المعنى التركيبي أو الوظيفي, وفي تحديد العلم في ذلك, وفي الصيغة الخاصة به وكانت الآراء على النحو الآتي:

الرأي الأوّل: يتحدَّد المعنى في علم البلاغة تحت عنوان (علم المعاني), وقد وجدنا السكاكي (ت: 626هـ) سمّاه (علم المعاني), وعرّفه قائلًا: "هو تَتَبُّعُ خواص تراكيب الكلام في الإفادة, وما يتّصل بها من الاستحسان وغيره؛ ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره وأعني بتراكيب الكلام التراكيب الصادرة عمَّن له فضل تمييزٍ ومعرفةٍ, وهي تراكيب البلغاء لا الصادرة عمَّن سواهم "[17].

الرأي الثاني: يتحدّد المعنى في علم النحو تحت عنوان (معاني النحو), فوجدنا فيه الدكتور تمام حسّان (ت: 2011م) قد قال: "النحو العربيّ أحوجُ ما يكون إلى أنْ يدّعي لنفسه هذا القسم من أقسام البلاغة الذي يُسمّى علم المعاني"[18].

الرأي الثالث: وهو رأيٌ يمكن استنتاجه بالنظر إلى النحو والبلاغة معًا, فالمعنى مشتركٌ بينهما, والأفضل هو عدم الفصل بين هذينِ العلمين في هذا الباب.

علاقة الألفاظ بالمعاني, وعلاقة المعاني بالنحو:

يُعدُّ عبد القاهر الجرجاني (ت: 471هـ) صاحب نظرية النظم المعروفة رائدًا في مجال بيان العلاقة بين المعاني والألفاظ, والعلاقة بين المعاني وعلم النحو.

فقال في بيان العلاقة بين المعاني والألفاظ : "وأنّك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك لم تحتجْ إلى أن تستأنف فكرًا في ترتيب الألفاظ, بل تجدها تترتَّب لك بحكم أنَّها خدمٌ للمعاني وتابعةٌ لها ولاحقةٌ بها , وأنَّ العلم بمواقع المعاني في النفس علمٌ بمواقع الألفاظ الدّالّة عليها في النطق"[19].

وقال في بيان العلاقة بين المعاني وعلم النحو: "فلا ترى كلامًا قد وُصِفَ بصحّة نظمٍ أو فساده, أو وُصِفَ بمزيّةٍ وفضلٍ فيه إلّا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد, وتلك المزيَّة وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه, ووجدته يدخل في أصلٍ من أصوله, ويتّصل ببابٍ من أبوابه"[20].

ويتبيّن من ذلك أنَّ "المعيار الذي يحكم تركيب الجملة هو وضوح المعنى الدلالي, وعليه يقوم المتكلّم بإنشاء العلاقة النحوية التي تبرز هذا المعنى, ويتحدّد نوع العلاقة وفقًا لسياق المقام وغرض المتكلّم من نظم الجملة"[21].

الفرق بين النحو ومعاني النحو

أ- (النحو):

ويُقْصَدُ به (الفلسفة النحوية) التي هي منهجٌ يفسِّر الظواهر النحوية إمّا بذكر العلل النحوية أو بذكر الشروط اللازمة لتحقيق الظاهرة النحوية, وتشمل الفلسفة النحوية نظام النحو من العلامات الإعرابية, والجانب المعنوي الفلسفي.

ومن ذلك الاختلاف في إعراب كلمةٍ عند النحاة, ثم المعاني وتبيين الأدلة التي عند النحاة, ثم إدخالها في الفلسفة النحوية.

ب- (معاني النحو):

ويُقْصَدُ بها: (الدلالة النحوية) التي هي دلالةٌ ناتجةٌ من استعمال الألفاظ أو الأشكال الكلامية في الجملة على المستوى التحليلي أو التركيبي, وتشمل الدلالة النحوية ما يأتي:

1- الدلالة الإعرابية: فالضمة دلالة على الإسناد, والفتحة دلالة على المفاعيل, والجر دلالة على الإضافة.

2- تناوب الحركات الإعرابية: كما في القراءات القرآنية, أو في اختلاف الحركات في الشعر.

3- الدلالة التركيبية : كالتقديم والتأخير, والحذف, وعود الضمير, والجمل الاعتراضية, والفصل بين المتضايفين, والجمل التي لها محل من الإعراب والتي ليس لها محل من الإعراب.

4- دلالة الأدوات: كحروف الجر, وحروف العطف, واسم الفعل.

5- دلالة الأساليب: كالتعجب, والنفي, والاستفهام.

دراسة النحو على أساس المعنى:

من المحاولات الحديثة في دراسة موضوع المعاني النحوية ما قدّمه الدكتور فاضل السامرائي في كتابه (معاني النحو) الذي قال في مقدمته: "قد أبدو مغاليًا في هذا الزعم, ولكن هذا الزعم حقيقة أنّنا نعجز عن فهم كثيرٍ من التعبيرات النحوية أو تفسيرها, ولا نستطيع التمييز بين معانيها"[22]. ومن الأمثلة التي ذكرها بطريقة التساؤل عن الفرق في المعنى ما يأتي:

1- چ گ گ ں ں ڻ چ (سورة الأحقاف, من الآية: 9), وچ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ چ (سورة الشعراء: 115).

2- چ ئا ئه ئه ئو چ (سورة الأنعام, من الآية: 66) , وچ ڍ ڍ ڌ ڌ چ (سورة يونس, من الآية: 108).

3- چ ئه ئه ئو ئو ئۇ ئۇ ئۆ ئۆ ئۈ ئۈ ئې ئې ئى ئى چ (سورة القصص:13). فجاء بالتعليل الأول بـ (كي) , والثاني باللام .

"إنَّ دراسة النحو على أساس المعنى علاوةً على كونها ضرورةً فوق كلِّ ضرورةٍ تعطي هذا الموضوع نداوةً وطراوةً, وتكسبه جِدةً وطرافةً, بخلاف ما عليه الآن من جفافٍ وقسوة. إنَّ الدارس له على هذا النهج يشعر بلذّةٍ عظيمةٍ وهو ينظر في التعبيرات ودلالاتها المعنوية, ويشعر باعتزازٍ بانتسابه إلى هذه اللغة الفنية النثرية الحافلة بالمعاني الدقيقة الجميلة"[23].

"وإنّ جواز أكثر من وجهٍ تعبيري ليس معناه أنَّ هذه الأوجه ذات دلالةٍ معنويةٍ واحدة, وإنَّ لك الحقَّ في أن تستعملَ أيَّها تشاء كما تشاء , وإنّما لكلِّ وجهٍ دلالتُه ... ولا يمكن أن يؤدي تعبيران مختلفان معنىً واحدًا إلّا إذا كان ذلك لغةً نحو قولك: (ما محمدٌ حاضرًا) و(ما محمدٌ حاضرٌ), فالأولى لغةٌ حجازيةٌ, والثانية تميمية ولا يترتَّب على هذا اختلافٌ في المعنى"[24].

والدراسة الصحيحة للنحو ينبغي أن تبدأ من الدلالات ثم تنتقل إلى الوظائف, أي أن يبدأ التعليم من الجملة الاسمية ومعناها, والجملة الفعلية ومعناها. ومن ذلك أن نقوم مثلًا بشرح معنى الفاعل أو معنى نائب الفاعل بطريقةٍ واضحةٍ, ونأتي بشواهد قرآنيةٍ أو غيرها يحبها المتعلم, ولا ينفر منها كما قد يحصل عند البدء بالوظائف قبل الدلالات.

دلالة الحركات الإعرابية على المعاني

قال الزجاجي (ت: 340هـ): "إنَّ الأسماء لمّا كانت تعتورها المعاني فتكون فاعلةً ومفعولةً ومضافةً ومضافًا إليها, ولم تكن في صورها وأبنيتها أدلةً على هذه المعاني, بل كانت مشتركةً جُعِلَت حركات الإعراب فيها تُنبئ عن هذه المعاني"[25].

ثمَّ قال الزجاجي: "هذا قول جميع النحويين إلّا قطربًا (ت: 206هـ) فإنّه عاب عليهم هذا الاعتلال, وقال: (لم يُعْرَب الكلام للدلالة على المعاني والفرق بين بعضها وبعض؛ لأنّا نجد في كلامهم أسماءً متّفقةً في الإعراب مختلفةً في المعاني مثل:

م. م. علي حامد حسين أ. د. هاشم جعفر حسين

(إنَّ زيدًا أخوك, ولعلَّ زيدًا أخوك, وكأنَّ زيدًا أخوك), وأسماءً مختلفةَ الإعراب متفقةَ المعاني مثل: (إنّ القومَ كلَّهم ذاهبون, وإنَّ القومَ كلُّهم ذاهبون ...) وقال قطرب: (وإنّما أعربت العرب كلامها؛ لأنَّ الاسم في حال الوقف يلزمه السكون للوقف ... فلما وصلوا وأمكنهم التحريك جعلوا التحريك معاقبًا للإسكان ليعتدل الكلام)"[26].

وقد ردَّ النحاة على ما ذهب إليه قطرب من تفسيره للحركات الإعرابية, ومن بين هذه الردود ما رآه الزجاجي[27] من ردٍّ يمكن إيجازه بما يأتي:

1- لو كان الكلام كما زعم قطرب لجاز خفض الفاعل مرّة ورفعه أخرى ونصبه ... وفي هذا فسادٌ للكلام, وخروجٌ عن أوضاع العرب وحكمة نظام كلامهم .

2- أمّا قضية اتّفاق الإعراب واختلاف المعاني, واختلاف الإعراب واتّفاق المعاني فإنَّ الاسمين بعد الفعل وهما الفاعل والمفعول فمعناهما مختلف فوجب الفرق بينهما.

3- ذكر بعض النحويين أمثلةً لدحض ما رآه قطرب, فقالوا: الإعرابُ به تمييزٌ للمعاني, ووقوفٌ على أغراض المتكلّمين, ومن ذلك (ما أحسن زيد) فإذا لم تُحَدَّد بالإعراب والحركات لم يُوقَف على المُراد , أمّا إذا قلنا: (ما أحسنَ زيدًا) ! و(ما أحسنَ زيدٌ) . و(ما أحسنُ زيدٍ) ؟ فبتغير الحركات تتغيّر المعاني وهذا يعني أنَّ الجملة الأولى تدلّ على التعجّب , والجملة الثانية تدلّ على النفي, والجملة الثالثة تدلّ على الاستفهام , ولم يتبيّن هذا الفرق بين الجمل إلّا بالحركات الإعرابية التي دلّت على اختلاف المعاني .

مراعاة المعنى في تطبيقاتٍ نحوية:

1- "بين الفعل والاسم: الفرق بين هاتين الصورتين أعني الجملة التي مسندها فعل والجملة التي مسندها اسم أنّ الفعل يدلّ على التجدُّد والحدوث, أمّا الاسم فيدلُّ على الثبوت. ومثال ذلك قولنا: (يجتهد سعيد) الذي يدل على الحدوث, وقولنا (سعيدٌ مجتهدٌ) الذي يدلُّ على الثبوت"[28].

2- "**بين التنكير التعريف:** قد يتم استعمال التنكير بدلًا من استعمال التعريف لتحقيق غرضٍ ما, وللتنكير في اللغة العربية أغراضٌ كثيرةٌ نذكر منها غرضين هما:

أ- التعظيم : نحو قوله تعالى: چ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ چ (سورة هود, من الآية: 103) في كلمة {يوم}, وقوله تعالى: چ چ چ چ ڈ ڈ چ (سورة النمل: 6) في كلمتي {حكيمٍ عليم}.

ب- التحقير: نحو قوله تعالى: چ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ چ (سورة البقرة, من الآية: 96), في {حياة} بمعنى (أيّ حياةٍ) كانت ولو كانت حقيرةً مهينة"[29].

3- "بين الرفع والنصب: ذكر الزمخشري أنّ الرفع فيه ثبات المعنى واستقراره, فقال: "ومنه قوله تعالى: چ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې چ (سورة هود, من الآية: 69), رفع السلام الثاني للدلالة على أنّ إبراهيم عليه السلام حيّاهم بتحيّةٍ أحسن من تحيّتهم؛ لأنَّ الرفع دالٌّ على معنى ثبات السلام"[30].

4- ضمير الفصل: ومنه قوله تعالى: "چ ے ۓ ۓ ڭ چ" (سورة البقرة, من الآية: 5), وقد ذكر الزمخشري فائدة ضمير الفصل (هو) وحدَّدها في ثلاثة أمورٍ هي: "(التوكيد, والدلالة على أنَّ الوارد بعده خبر لا صفة, وأنّ فائدة المسند ثابتة للمسند إليه دون غيره), ومنه قوله تعالى: چ ۇ ۆ ۆ ۈ چ (سورة الحج, من الآية: 12), فوجود الضمير عيَّنَ أن يكون الضلال هو الخبر, ولولا (هو) لاحتمل أن يكون {البعيد} هو الخبر, و{الضلال} تابعًا"[31].

5- "ضمير الشأن: وهو ضمير الغائب الذي تأتي بعده جملةٌ تفسّره ويكون شأنها عظيمًا, ومنه قوله تعالى: چ ٱ ب ب ب ٻ چ (سورة التوحيد: 1), ولبيان معناه نلاحظ الفرق بين الجمل الآتية:

1- (زيدٌ منطلقٌ) : التي ليس فيها ضمير, فيها إخبارٌ أوّليٌّ.

2- (زيدٌ هو المنطلقُ): التي فيها ضمير الفصل, فيها معنى التخصيص.

3- (هو زيدٌ منطلقٌ) : التي فيها ضمير الشأن, فيها معنى التفخيم والتعظيم"[32].

أمثلة تطبيقية في معاني النحو:

1- في دقّة النظم

في قوله تعالى: چ چ چ چ (سورة القمر, من الآية: 54), فرأى الجرجاني أنَّ في هذا النظم إشارة إلى معنى الشمول, فقال: "ذلك أنّه قد أفاد أنَّ الأرض قد كانت صارت عيونًا كلّها, وأنَّ الماء قد كان يفور من كلِّ مكانٍ منها, ولو أُجري اللّفظ على ظاهره, فقيل: (وفجّرنا عيونَ الأرضِ), أو (العيونَ في الأرض), لم يفد ذلك ولم يدلّ عليه, ولكان المفهوم منه أنَّ الماء قد كان فارَ من عيونٍ متفرّقةٍ في الأرض, وتبجَّسَ من أماكن منها"[33].

ونجد الفرق بين (فجّرنا عيونَ الأرضِ) و{فجّرنا الأرضَ عيونًا} أنَّ الوظيفة النحوية قد اختلفت في الجملتين, ففي الجملة الأولى نجد(عيونَ) مفعولًا به, أمّا في الجملة الثانية فنجد {عيونًا} تمييزًا, فاختلف التركيب, واختلف المعنى, وبذلك فإنَّ البنية الأولى لا تخدم المقام, فاحتاج المقامُ إلى البنية الثانية الموجودة في الآية الكريمة التي فيها ذكرُ تفجير الأرض, ولم يتّضح معناه إلّا بعد ذكر التمييز الذي هو تمييز نسبةٍ ملحوظ أزال الإبهام الموجود في الإسناد, أي إنَّ كلّها صارت ماءً.

2- استعمال المبني للمجهول:

ومن ذلك الدلالة على استعمال البناء للمجهول فقد ذكر البلاغيون أنَّ فيه تركيزًا على الحدث, وهذه دلالةٌ معنوية, ونستطيع القول: إنَّ في البناء للمجهول حذفًا للفاعل, ثم تركيزًا على الحدث, ثم التفكير بالوصول إلى الفاعل من جديد, ومنه قوله تعالى : "چ ئا ئا ئه ئه ئو ئو ئۇ ئۇ ئۆ ئۆ ئۈ ئۈ ئې ئې ئى ئى ئد چ" (سورة هود: 44), ومنه أيضًا قوله تعالى في حكاية قصة يوسف: "چ ھ ھ ے ے ۓ چ" (سورة يوسف: 41) .

3- في جملة المبتدأ والخبر

"ومن الأمثلة التي يتبيَّن فيها الفرق بين الجمل بالمعنى ما يأتي :

1- (زيدُ منطلقٌ): فيها معنى الإخبار لمن لم يكن يعرف بحصول انطلاق.

2- (زيدٌ المنطلقُ): فيها معنى التخصيص لمن لم يحدّد الانطلاق من زيدٍ أو عمرو.

3- (المنطلقُ زيدٌ): فيها معنى التثبُّت لمن يرى شخصًا منطلقًا من بعيدٍ لا يعرفه[34]

الخاتمة

انتهى البحث إلى مجموعةٍ من النتائج هي:

1- التعريفات الأولى لمصطلح النحو عند القدماء لم تقصد إغفال جانب المعنى في النحو بل أعطت تعريفاتٍ تتناسب مع الغرض المُراد من الجانب التعليمي للمتعلّمين.

2- الاستقراء لكلام العرب لم يكن تامًّا عند وضع النحو؛ لصعوبة تحقيق ذلك الأمر من جانب؛ ولاستبعادهم المدونة اللغوية لأهل البيت عليهم السلام؛ لأسباب سياسية من جانبٍ آخر.

3- لم يذكر القدماء نحو القرآن الكريم في تعريفاتهم؛ لأنَّ أسلوب القرآن الكريم أعلى من أسلوب تعلّم أحكام النحو, ونتعرّف أسلوب القرآن الكريم في كتب إعراب القرآن, أو في كتب معاني القرآن, وما شابه ذلك.

4- إنَّ وظيفة النحو لا يمكن اقتصارها على ضبط أواخر الكلام, بل للنحو وظيفتان الأولى لفظية تتمثَّل بالإعراب, والثانية معنوية تتمثّل بمعرفة المعنى المراد الذي لا ينفصل عن الإعراب.

5- فهم القرآن الكريم وخدمته في مقدّمة الأسباب التي من أجلها وُضِعَ النحو, ثم يأتي بعد ذلك سبب الابتعاد عن اللحن في كلام العرب, والقرآن الكريم صاحب الفضل في الحفاظ على اللغة العربية من الضياع أو الاندثار.

6- ذهب بعض الباحثين إلى أنَّ تحديد المعنى من وظائف علم المعاني في علم البلاغة, وذهب آخرون إلى أنّه يتمثّل بمعاني النحو في علم النحو, واستقرَّ الأمر عند آخرين أنَّ تحديد المعنى شيءٌ مشتركٌ بين العِلمين (النحو والبلاغة) .

7- الفرق بين النحو ومعاني النحو هو أنَّ النحو يتمثَّل بالفلسفة النحوية كالحديث عن الآراء والأدلّة في تحديد نظام الحركات الإعرابية, وأمّا معاني النحو فتتمثَّل بالدلالة النحوية, كالدلالة الإعرابية, والدلالة التركيبية, ودلالة الأساليب, ودلالة الأدوات.

8- إنَّ الدراسة الصحيحة للنحو ينبغي أن تبدأ من الدلالات, ثم تنتقل إلى الوظائف, أي أنْ يبدأ التعليم من الجملة الاسمية ومعناها, والجملة الفعلية ومعناها. ومن ذلك أنّنا نقوم مثلًا بشرح معنى الفاعل أو معنى نائب الفاعل بطريقةٍ واضحةٍ ونأتي بشواهد قرآنية أو غيرها يحبها المتعلم ولا ينفر منها كما قد يحصل عند البدء بالوظائف قبل الدلالات .

والحمد لله أولًا وآخرًا .

الهوامش:

([1]) معجم مقاييس اللغة: 5 / 403 .

([2]) توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك: 1 / 265 .

([3]) لسان العرب: 15 / 309 - 310 .

([4]) القاموس المحيط: 1337 .

([5]) الأصول في النحو: 1 / 35 .

([6]) الخصائص: 1 / 34 .

([7]) شرح التصريح على التوضيح: 1 / 11 .

([8]) مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب: 2 / 582 .

([9]) التحفة السنية بشرح متن الأجرومية: 4 .

([10]) إحياء النحو: 1 .

([11]) نزهة الألباء في طبقات الأدباء: 14 .

([12]) النحو والدلالة: 26 .

([13]) المصدر نفسه: 25.

([14]) المصدر نفسه: 27 .

([15]) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: 2 / 582 .

([16]) البحث النحوي عند الأصوليين: 9 .

([17]) مفتاح العلوم: 161 .

([18]) اللغة العربية معناها ومبناها: 18 .

([19]) دلائل الإعجاز: 54 .

([20]) المصدر نفسه: 83 .

([21]) معاني النحو أو علم المعاني عند النحويين والبلاغيين : (مقالة منشورة) .

([22]) معاني النحو: 1 / 5 .

([23]) المصدر نفسه: 1 / 8 .

([24]) المصدر نفسه: 1 / 9 .

([25]) الإيضاح في علل النحو: 69 .

([26]) المصدر نفسه: 70 .

([27]) المصدر نفسه: 71 .

([28]) معاني النحو: 1 / 16 .

([29]) المصدر نفسه: 1 / 40 – 41 .

([30]) الكشاف: 1 / 112 .

([31]) يُنظر الكشاف: 1 / 161 , ومعاني النحو: 1 / 48 .

([32]) معاني النحو: 1 / 58 .

([33]) دلائل الإعجاز: 102 .

([34]) يُنظر : المصدر نفسه: 194 – 202 .

المصادر والمراجع:

1- إحياء النحو, الدكتور إبراهيم مصطفى, (ت: 1962م), ط2, القاهرة, 1992.

2- الأصول في النحو, أبو بكر محمد بن السري بن سهل بن السراج النحوي البغدادي, (ت: 316هـ), مؤسسة الرسالة, ط3, بيروت, 1996.

3- الإيضاح في علل النحو, أبو القاسم الزجاجي, (ت: 337هـ), تحقيق: د. مازن المبارك, دار النفائس, ط3, بيروت, 1979.

4- البحث النحوي عند الأصوليين, مصطفى جمال الدين, (ت: 1996م), منشورات دار الهجرة, ط2, قم, 1405هـ.

5- التحفة السنية بشرح الأجرومية, محمد محيي الدين عبد الحميد, (ت: 1392هـ , 1972م), المكتبة العصرية, بيروت, 2008م.

6- توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك, أبو محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن عليّ المرادي المصري المالكي (ت: 749هـ), شرح وتحقيق: عبد الرحمن علي سليمان، دار الفكر العربي, ط1, 1428هـ - 2008م.

7- الخصائص, أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي, (ت: 392هـ), تحقيق: محمد علي النجار, دار الكتب المصرية, القاهرة, 1952م.

8- دلائل الإعجاز, أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني, (ت: 471هـ), قراءة: محمود محمد شاكر, مطبعة المدني, ط3, القاهرة, 1992م.

9- شرح التصريح على التوضيح, خالد بن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن أحمد الجرجاوي الأزهري, (ت: 905هـ), تحقيق: محمد باسل عيون السود, دار الكتب العلمية, بيروت, 2000م.

10- القاموس المحيط, مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي, (ت: 817هـ), تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي, مؤسسة الرسالة, ط8, بيروت, 2005م.

11- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل, جار الله أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد الزمخشري الخوارزمي, (ت: 538هـ) تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود, علي محمد معوض, مكتبة العبيكان, ط1, الرياض, 1998م.

12- لسان العرب, جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي بن منظور الأنصاري الرويفعي الأفريقي, (ت: 711هـ), نشر أدب الحوزة, قم, 1405هـ.

13- اللغة العربية معناها ومبناها, د. تمام حسّان, (ت: 2011م), دار الثقافة, الدار البيضاء, 1994م.

14- معاني النحو, د. فاضل السامرائي, دار الفكر, ط1, عمّان, 2000م.

15- معاني النحو أو علم المعاني عند النحويين والبلاغيين, بحث منشور, منتدى مجمع اللغة العربية على الشبكة العالمية, د. سلام المحنش.

16- معجم مقاييس اللغة, أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي, (ت: 395هـ), تحقيق: عبد السلام محمد هارون, دار الفكر.
17- مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب, أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام الأنصاري المصري, (ت: 761هـ), تحقيق: د. مازن المبارك, محمد علي حمد الله, دار الفكر, ط1, دمشق, 1964م.

18- مفتاح العلوم, سراج الدين أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي, (ت: 626هـ), تحقيق: نعيم زرزور, دار الكتب العلمية, ط2, بيروت, 1987م.
19- النحو والدلالة, د. محمد حماسة عبد اللطيف, (ت: 2015م), دار الشروق, ط1, القاهرة, 2000م.

20- نزهة الألباء في طبقات الأدباء, أبو البركات عبد الرحمن بن أبي الوفاء محمد بن عبيد الله بن محمد بن عبيد الله بن أبي سعيد محمد بن الحسن بن سليمان الأنباري، الملقب كمال الدين، النحوي, (ت: 577 هـ), تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم, دار الفكر العربي, القاهرة, 1998م.